# تطوّر اللغة العربية

للمؤلف

نص المحاضرة البليغة التي ألقيت في ردهة المحاضرات بجامعة القاهرة الاميركية في اوائل الصيف

أيها السادة والسيدات

لكل من الموضوعات جوٌّ أدبيٌّ يخيّمُ على الحاضرين ويحولُ لونهُ بينهم وبين الخارج. اما موضوعنا الليلة فعلى نقيض ذلك. إذ يخيلُ اليَّ انَّ جدران هذه القاعة الفسيحة تتوارى بغتةً لترتدَّ الى ما وراء القاهرة وتخوم القطر المصري، الى ما وراء البحار والقفار وسلاسل الجبال النائية لتشمل كل بلد يتكلم أهله اللغة العربية، بل ليشمل كل قبيلة تتكلم اهلها ولو لهجة مجهولة مشوهة من اللغة العربية

ويخيلُ اليَّ ان الزمان يتسع باتساع المكان فيرجع بنا الى يوم بعيد فيه كانت العربية نشيداً وجدانيًّا على لسان سائقي الاظعان وروّاد الصحراء وكانت ابجدية فلكية على لسان رعاة يرصدون دورة الفلك ويرقبون غروبَ قمرٍ وشروقَ كوكبٍ ليستأنفوا السير الى حيث ضرب الاحباب خيامهم وأشعلوا نارَ القرى

ويخطو بنا الزمنُ في تسجلٍ متجاوزاً مختلف العهود حتى يقف لحظة عند عهد الجاهلية الاقرب ايام كانت تنظم المعلقات لتنشد في سوق عكاظ، ومن حولها بلادُ العرب تعيش بالحركات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في جميع الانحاء. ومن ثمَّ فنحنُ في اوائل القرن السادس الميلاد. وبينا الرومان واليونان سادة الحضارة والثقافة في هاتيك الازمان، يجاهدون للاحتفاظ بالبقية الباقية من مدنيتهم المتأثرة — اذا بقوم مجهولين من قبل ينهضون في شبه الجزيرة تهتف الاسود فيقتحمون البلدان، ويفتحون الممالك والامصار، ويفاجئون العالم بصورة جديدة من الحيوية الانسانية، ويقيمون دولة عربية، وينشرون في العالمين رسالة جديدة باللغة العربية

وتوالى القرون واولئك القوم يوسّعون ملكهم ويوطدون مجدهم مستمدين الوحي والفائدة من كل ما يوحي ويفيدُ معالجين فنون الصناعة والتجارة والثقافة، ناقلين كتب

العلم والادب والطب والفلسفة من السريانية واليونانية والهندية ، مستخرجين من شتى المناهج الباقية السالفة طرازاً هندسيًّا ذا طابع خاص انيق ، مؤسسين الجامعات يقصد اليها المسلمون وغير المسلمين من الشرقيين والغربيين ليتلقوا العلم والحكمة بلغة ليست هي اليونانية ولا اللاتينية ولكنها لغة ذلك الكتاب الذي ناف في ستين عاماً انتشاراً لم يناله كتاب من قبل : لغة القرآن ، اللغة العربية

إن الصور المارة امامنا الآن في مثل لمح البصر هي صور الخيال والذكرى . على ان الرأي المتلخص فيها حقيقة تاريخية اجمع عليها المنصفون من مؤرخي الفرنجة . وها كم ما يقوله رينان في كتابه « التاريخ العام للغات السامية » عن انتشار اللغة العربية :

« لقد استفاض انتشار اللغة العربية فاستولت على اوسع المساقات وأبعد البلدان . اجل، لقد كان لليونانية واللاتينية مثل حظها في ان تصبحا لغتين عالميتين (universelles) تذيعان عقيدة دينية وتنشران انظمة سياسية تغلبت على تباين الشعوب والاجناس والمشارب في توحيد الكلمة وتعريف الغاية . فشاعت اللاتينية من كمبانيا (ايطاليا الجنوبية) الى الجزر البريطانية ومن نهر الرين الى جبال أطلس . وشاعت اليونانية من صقلية الى شواطىء دجلة والفرات ومن البحر الاسود الى بلاد الحبشة . ولكن ما اضأل هذا الانتشار اذا ما قوبل بانتشار اللغة العربية التي تناولت اسبانيا والقارة الافريقية حتى خط الاستواء ، وسيطرت على آسيا الجنوبية حتى جاوه، واقتحمت من الروسيا ما افتحمت شاملة كاسوفيا »

ذلك كان انتشار اللغة العربية ابّان ازدهارها أيام كانت دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة عواصم العلم والحضارة في العالم. على ان التاريخ يصلُ بنا حتماً إلى يوم اكتسحت جيوشُ هولاكو قاعدة العباسيين فتضعضعت الرابطة العربية ولحقها الانحلال السياسي فتفرَّق شملها ودخلت الشعوب العربية في دور سبات عميق . ولما كان حظُّ اللغة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحظّ الشعب مرتفعاً بارتفاعه ،هاوياً بهبوطه، فقد جمدت اللغة العربية بجمود الشعوب المتكلمة بها ووقفت حيث كانت

***

ثلاثة قرون او تزيد مرَّت في ذلك الهجوع المديد . ثلاثة قرون تنبَّهت في خلالها شعوبُ الغرب بعد استكانتهم في القرون الوسطى، وانقلب التنبه يقظةً حارة دائبة السعي، مرهفة العزم ، عديدة الفروع ، شاملة الانتشار في مختلف البلدان ، واكتشفت القارة الاميركية ، وتيقَّظت في العالم مصالح جديدة وأطماع جديدة ، فتخذوا من العلم والتجارة

والصناعة والادب والفن والتاريخ والسفر وركوب الاخطار وسائل لتحقيقها. سخّروا قوى الطبيعة لخدمتهم، وطوّقوا الكرة الارضية بسلك الحديد، وانفاس البخار، وموجات الكهربائية والنور والاثير، وكشفوا عن مكنون الاسرار في الكيمياء والطب والجراحة والهندسة والعلوم الرياضية والطبيعية والنفسية. وابتكروا المدهش الساحر من الادوات الميكانيكية والآلات ووسائل النقل واساليب المعيشة. وكان التجديدُ في اللغة يسايرالابتكار العلمي والميكانيكي والفنّي والاجتماعي والادبيّ خطوةً خطوة. فلكلّ حركةٍ لفظةٌ، ولكلّ آلةٍ او جزء من آلةٍ اسمٌ، ولكلّ سرٍّ معنىً يجلوه، ولكل فكرةٍ وعاطفةٍ وتأثير مفرداتٌ وكلمات وتعبيرات تقوم بشرحه وتبيانه

واستيقظت الشعوب المتكلمة بالعربية — ولم تكن يقظتها وهمية خيالية، بل كانت والحمد لله حقيقة محسوسة — فادركت تلك الشعوب ان بينا قافلتها كانت موغلةً في الرقاد كانت قوافلُ الشعوب الاخرى توغل في المسير. ولم يطلّ حتى اقتبس المتكلمون بالعربية ثقافة الامم الحية، واصطنعوا ادواتها وعلومها واساليبها الحيوية، وتشبّعت نفوسهم بجديد المعاني والنزعات والمطامح بعد ما اسبغتهُ الحضارة عليهم من الوحي العلمي والاجتماعي الجديد. وعند ما ارادوا ان يعبّروا عن حاجاتهم الجديدة وان يسموا المستحدثات والادوات والحركات باسمائها لم يجدوا بين يديهم ما ينطبق عليها ويصلح ان يكون مترجما وموفيا حقّها من الاداء والتسمية والتعبير

وامام هذه المشكلة العسيرة ترى الكاتبين في مختلف فروع اللغة والعلم والادب والاقتصاد والاجتماع «بين نارين»، كما يقولون: بين المحافظين الذين لا تقبل بعض طوائفهم ولا لفظة واحدة جديدة، وبين المجددين الذين تأبى بعض طوائفهم إلاّ ان تؤدي المعنى سواء اكان موافقاً لروح اللغة ام كان مستهيناً بقواعدها عابثاً بكرامتها

ومن ذا الذي لا يوافق المعتدلين من المحافظين على مفاخرتهم بهذه اللغة العربية التي تقبلُ علينا من اقاصي التاريخ وقد اندثرت جميع اخواتها السامية من آرامية وكنعانية وكلدانية وسريانية وآشورية وعبرانية قديمة وغيرها، في حين هي، على رغم ما مرّ بها من عصور الركود والجمود، ما تنثّت تفيض قوة وحياة؟

من ذا الذي لا يعرف للكتاب الكريم فضله في بقاء هذه اللغة حيةً ومن ذا الذي يجهل ان اللغة العربية باقية ما بقيَ الاسلام حيًّا؟

منذا الذي لا يعترف بما ادّتهُ هذه اللغة من الخدم إلى العالم وبأنها كانت في حين ما الصلة الوحيدة بين حضارات الماضي وحضارة اليوم؟

هذا الذي لا يوافق المحافظين على قولهم ان ليس في مقدور امة ان تخلق نفسها في جيل واحد وان حكم البقاء يضطرها الى ان ترتبط بين ماضيها وحاضرها بعرى غير منفصمة وان من اهم تلك العرى الاحتفاظ بروح اللغة والحرص على بقاء الفاظها ونبل صيغها ؟

وهذا الذي لا يؤيد كذلك المجددين في قولهم : « وهل انا جان على كرامة اللغة ، عابث بروحها ، منكر فضلها ، جاحد تاريخها عند ما أبحث عن اسماء للمسميات التي احاطيها واصطنعها كلَّ يوم وكلَّ ساعة في حياتي الفردية والاجتماعية والقومية ؟ اني اركب القاطرة والباخرة والسيارة والطيارة والبسيكلت ( الدرَّاجة ) ، واستخدم التلغراف السلكي واللاسلكي والتلفون والمكروفون والراديو ، واستفيد من كلّ ما ابتكر العلم والفنّ والصناعة والتجارة فاشعر بحركات جديدة تهزّ نفسي واريد ان اجد اسماء لقطع الاثاث الموضوعة في بيتي ولاجزاء الملابس التي ارتديها ولادوات الزينة والعمل والكتابة والدرس المنثورة على طاولتي وكلها من مبتكرات الاعوام المتأخّرة — فلا اجد لها سوى الاسم الذي تعرف به في اللغات الافرنجية . فما هو ذنبي إن أنا سميتُ الاشياء والحوائج بأسمائها حتى ولو غضب لذلك الخليل وسيبويه ؟ وهل أنا اكون جانياً على روح اللغة عابثاً بكرامتها إذا أدخلتُ عليها تعبيرات جديدة؟ ولماذا ترى أجد انا بيننا العالم حولي يتحرك ويسير ويجري؟»

***

وهناك جماعة لا ترى حلاً لهذا المشكل وخروجاً من هذا المأزق الا في تأليف مجمع لغوي يظهر أنها تنتظر منهُ المعجزات : فهو الذي سيقوم بوضع كتاب مختصر وافٍ لقواعد اللغة يمكّن كل طالب من الالمام بها في اقصر وقت ممكن ليتسنى له ان يكتب في التعبير عن مقاصده وتصريف اموره بلغة صحيحة لا لحن فيها ولا عوج

وهو الذي سينقي اللغة ويطهرها من الشوائب التي شابتها على ألسنة الحاكين، ويذود عن حرمتها من عجمات المجددين فيردُّ الخطأ من الفاظها صواباً والاعجمي عربيًّا . وهو الذي سيبحث في كتب العرب القديمة فيستخرج من بحرها الزاخر الالفاظ الرشيقة والمفردات البليغة التي تقوم بتأدية المعنى المطلوب وتغنينا عن الالفاظ الغريبة . وان لم يجد الجمع بغيته في كتب العرب فسيبتكر اسماء ومفردات وتعبيرات عن طريق النحت والاشتقاق والتعريب ويحكم بالفناء على الفاظ قديمة وكلمات حوشية عفا عليها الزمن أو نبا عنها الذوق

وهو الذي سيرجع الى طوائف العمال واصحاب المهن ورجال الصناعات وباعة الاقمشة والاثاث والمأكول وأدوات الزينة والاستصباح وسائر شؤون الحياة ومرافق المعيشة فيتعرف مصطلحات كل جماعة وطائفة ومهنة ويأخذ عنهم الكلمات والمفردات التي ألفوها وتواطأوا

على استعمالها . فيتناولها ويهذب منها ما هو خليق بالعقل والتهذيب فيضمها الى كل ما سبق فابتكره واقتطعه واقتبسه وعربه من المفردات ويسجلون جميعاً في قاموس جديد جامع يتحتم تأليفه

ويقوم المجمع بعدئذ بانشاء موسوعة ( دائرة معارف ) عربية كبرى تحوي كل ما حوته موسوعات الامم الغربية من علوم وفنون وسياسات وتواريخ وصناعات وميكانيكات وما الى ذلك مما لا يقع تحت حصر مما يضاف اليه من جديد كل يوم في شتى الفروع والمعارف

ان هذا الرأي رشيد وجميع ماينطوي عليه من المطالب منطقي معقول . ولكن اين هو هذا المجمع الذي يقتضي الجهود العظيمة والاعوان العديدين والاموال الوفيرة والاعوام التي لا تحصى ؟ وماذا يصنع الكاتبون بالعربية . ماذا يصنع المصريون — والعربية لغة دولتهم الرسمية — ريثما يتألف هذا المجمع الموقر ويقوم بجهوده الجبارة ؟

* * *

في انتظار هذا المجمع ، ايها السادة والسيدات ، يتابع التطور سيره والحياة التي هي اقوى قوة تنبض فينا جميعاً وتدفعنا الى الافصاح عما يجول في نفوسنا . في انتظار هذا المجمع يتخرج الشبان والشابات من المدارس ويكتب العلماء والمؤرخون والادباء وينظم الشعراء ويخطب الخطباء ، ويؤلف محمد فريد وجدي دائرة معارف القرن العشرين ، ويضع محمد حدي قاموسه الصغير للمصطلحات العلمية ، وينشىء الدكتور محمد شرف معجمه الكبير الذي اقرته الجمعية الطبية ، على ما قرأت في بعض الصحف — معجماً رسمياً لها

في انتظار هذا المجمع تنشط حركة التجارة والصناعة ويضع المؤلفون كتباً في العلوم المالية والاقتصادية ويجعل بنك مصر والشركات المتفرعة منه اللغة العربية لغة معاملاته الرسمية . في انتظار هذا المجمع تجتاح انحاء البلاد بعوامل النهضة الوطنية ويخلق الزعماء ورجال السياسة الفاظاً وتعبيرات تسري بين الجماهير سريان الدم في الجسد ، وتقوم الصحافة بخدم جليلة في الابتكار والاشتقاق والاقتباس والتعريب فتحذف شيئاً فشيئاً المهملات والكنايات والاستعارات والجناس والبديع لتأخذ بالكلمة المحكمة المطلوبة في تأدية المعنى

وفي نجاح هذه النهضة اللغوية المتنوعة العامة دليل على حيوية اللغة العربية . فهي شأن كل كائن حي من الناحية الواحدة تنمو وتتجدد بما تضم اليها من المعاني والمفردات ومن الناحية الاخرى تتخلص من الزوائد الاضافية باندثار الالفاظ الحوشية والكلمات التي لا حاجة بنا اليها في حياتنا الراهنة

فحال لغتنا الآن حال موقفنا السياسي والقومي والعلمي والاجتماعي . دلائل التقدم

بادية فيها تبشر باستطراد السير الى الامام في سبيل استيفاء ما يعوزها من الالفاظ والمعاني والاسماء المستجدة ونحن مما محافظون مجددون في آن واحد

***

بيد ان هناك صعوبة نصطدم بها وهي التضاعف بين لغة الكتابة ولغة الكلام ، أي بين اللغة الفصحى واللغة العامية . لكن هذه الصعوبة — وان كانت في العربية اظهر — موجودة عند جميع الشعوب. ففي قومية واحدة ذات لغة رسمية جامعة ترى لكل اقليم لهجتهُ العامية المختلفة عن لهجات سائر الاقاليم. ويخلد هذه اللهجات الكتاب والشعراء «الاقليميون» الاوفياء «لوطنهم الصغير» دون ان يكون في مجهودهم ما يهدد كيان الوطن الاكبر ويحارب انتشار اللغة القومية

من مشاهير الكتاب الاقليميين في فرنسا « ميسترال » واضع رواية « ميراي — Mireille » التي عرضت في احدى دور السنما في القاهرة منذ عامين تقريباً . وقد نشأت شهرة ميسترال مما الفه بلهجة اقليمه « البروفنسالية » . وفي هذا العام الثلاثين من القرن العشرين تحتفي الشعوب اللاتينية بمرور مائة عام على مولد هذا الشاعر الكبير

ويعرف الذين قرأوا كتابات سر ولترسكوت تلك الجمل والكلمات المغلفة التي تتخلل رواياته لانها لم تكتب بالانجليزية بل بلهجته الاسكتلندية . . ومثله الشاعر برنز (Burns) الذي كتب بعض قصائده باللهجة الاسكتلندية ، وتوماس مور ( Moore ) الذي كتب بعض قصائده باللهجة الايرلندية ، ولم يهمل لاهذا ولاذاك اللغة الانجليزية القومية ، ونجد مثل هؤلاء عند جميع الشعوب

وان جاز لي ان افكر الى هذا الامر قلت ان ادباء مصر لم يقوموا بواجب الوفاء نحو لهجاتهم الاقليمية على ما فيها من طلاوة وبساطة و « نقاشة » . فان لكل اقليم يانعهُ الخاص المعبر عن روحه واعتقاداته واوهامه وآلامه ومطامحه في قصة او أسطورة او حكاية او اغنية . والادب الشعبي الاقليمي مؤرخون بعيد النور يحدثنا عن خلق الشعب وعاداته. فمن الخطأ ألاَّ نسجل جميع هذه المستندات في كتب الادب قبل ان تهزم أو تتحوَّر بفعل تقدم الحضارة . اننا نعنى بالحجارة القديمة وبقايا الآثار والاخربة الداثرة ، وحقاً نصنع. فما أحرانا بتدوين هذه الانسانية الزاخرة بمعاني الافراح والاتراح والبهجة والالم واليأس والحماسة على تقادم الدهور !

ولقد شعر بعضهم بصعوبة التضاعف بين اللغة العامية واللغة الفصحى فقام يدعو الى « تعصير » اللغة العربية

ايها السادة والسيدات

إننا برغم ما يصدمنا من صعوبة التجديد وصعوبة التضاعف لشعر في إخلاص بأننا نستطيع ان نمايل اللغتين في آن واحد . انَّ جميع الشعوب طامعة في نشر لغاتها أفتسعى نحن الى الامر المكوس ؟ إنَّ حظَّ اللغة العربية فريد بين حظوظ اللغات ، ولئن امتازت الانجليزية بأن لها آداباً اربعة هي الانجليزية المحضة والاسكتلندية والايرلندية والامريكية الجديدة فلكم ان تقدروا مبلغ امتياز اللغة العربية بآداب الاقطار التي تتكلمها فيها لو تكوَّنت تلك الآداب وأصبحت ذات طابع خاص في كلِّ قطر

وعلى كلٍّ ، فاللغة الفصحى يجب ان تبقى دائماً الحصن المنيع الذي نحتمي فيه جميعاً ، والرابطة النفيسة الغالية التي تجمع بين أهل الاقطار المتباعدة ، والصيغة الجميلة الحية التي تودعها مكنونات العقول والقلوب جيلاً بعد جيل حتى انتهاء الدهور

ليست اللغة اداة تعبير وكفى كما يزعمون . بل هي فكر وعاطفة وعلم وشوق ومطمح وفن وألم وأمل . هي صورة لكل شخصية كما هي صورة لكلِّ زمن . هي ملك الجميع وهي ملك كلِّ فردٍ ورثها فورث معها الحقَّ في استعمالها للتعبير عن حياته الخاصة . واذ يتصرف الفرد بحقه هذا يكون في نفس الوقت قائماً بواجبه نحو ماضي اللغة ومهيئاً لها مستقبلاً لا يكون محض صدى وتقليد وترجيع بل يكون صوت حياة وابداع وتوقع

لقد اعطينا الفرنجة من لغتنا فاخذوا الشيء الكثير ولم يخجلوا مما اخذوا . بل سجلوه في كتبهم ومعاجمهم وعلومهم ولم يستبدلوه بغيره رغم تقدُّم حضارتهم . فعلامَ نحن نتكبَّر ونأبى ونحن مثلهم جزء من الانسانية الذكية المتعاونة في السلم والحرب ، في الحب والشحناء ، على تأييد وجودها وعلى إثبات تفهُّمها ان التعاون في التبادل والتفاعل هو اصلُ لسنَّة التطوُّر ووسيلة لاستطراد الحياة ؟

اللغة يد الجميع من علماء وأدباء وعمال وموظفين وصحافيين . اللغة يد وزارة المعارف التي تستطيع ان تقدم للطلبة مُثُلاً جميلة بليغة في التفكير والبيان . اللغة يد المرأة التي تدور معها أعذب أحاديث العمر : أحاديث الانس والسمر والحنان . اللغة يد الشبان الذين تتدافع في نفوسهم عوامل الامل والقوة والحماسة . فليُفصحوا عما في نفوسهم بلغة صادقة مهذبة أمينة يكونوا فاتحين فتحاً جديداً ومهيئين للاجيال المقبلة ثروة جديدة

أما اولئك الذين لا يعيرون اللغة العربية اهتماماً فالتي عليهم الابيات التالية لخليل مطران . وأتعمَّد اختيار شعر من شاعر مسيحيٍّ لأثبت ان المسلمين وغير المسلمين في حبِّ اللغة العربية سواء . واليك الابيات :